كانت الساحة اللبنانية، على امتداد السنوات ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨ ، مختبـــرا لتجربة لم يجر بعد سبر اغوارها ، وتحليل عناصرها ، واستخلاص نتائجها · فلقد اتفق المثقفون العرب ، تقريبا ، على ان ابرز الاسباب التي ادت الى فشل حركة التغيير العربية ، هي غياب الحزب احيانا ، وافتقاد الديمقراطية عموما ، واستبعاد الجماهير ولجمها دائما وابدا · لكن الساحة اللبنانية شهدت ، بشكل او بآخر ، كل هذه العناصر : كل القوى العربية من « تقليدية » و « تغييرية » كانت متواجدة ، ولا يستطيع اي طرف ادعاء ان لديه ما يقدمه او يعرضـــه او يقوله ولم يفعل · وكانت هناك احزاب وتنظيمات سلحت جماهيرها ، وكانـــت هناك سلطة منهارة تبحث عمن يلتقطها ، وكان هناك « شارع » فارغ يبحث عمن يملأه · ومع ذلك ، فقد ذهب الناس ، وعلى رأسهم الحركات « التغييرية » ، الى السلطة القديمة يتوسلونها العودة ، وظل « الشارع » فارغا تصفر في ارجائـــه رياح خريفية ، بينما تتساقط اوراق « التغييريين » وتذبل تجربتهم ·

اين يكمن الخلل في هذه التجربة الطويلة ، من استلام التيارات القوميـــــة للسلطة في بعض الاقطار ثم صعود المقاومة الفلسطينية ، وانتهاء بحـــــرب لبنان ، حيث تحولت « غابة السلاح الوطني » الى « غابة من الفوضى المسلحة» بل العجز السياسي المسلح ؟ ·

أيكمن في غياب الممارسة الديمقراطية ، على كل صعيد ، وكأرقى تعبيـــــر حضاري بلغه عصرنا ، عن حق الشعوب في ان تتولى بنفسها شؤون تطورهـــا السياسي والثقافي والاجتماعي ؟

ام يكمن في واقع التجزئة واختلاف مستويات تطور المجتمعـــات العربية ، اللذين يعيقان تقدم الامة ويبعثران طاقاتها ، ويوفران للامبريالية فرص عمل لا حصر لها في داخل هذه المجتمعات ؟

ام يكمن في الثروة النفطية التي تفتك بعنصري الانتاج والطاقة البشريـــة ، فبدلا من الانسان المنتج ، والمجتمع الذي يتقدم بتطور انتاجه ، على كل الصعد، يمتد سرطان النفط متجاوزا مجتمعات اقطاره الى كل المجتمعات العربية ، ليحول الانسان الى هامشي وطفيلي ، والمجتمع الى وحش استهلاكي ، لا يسهـــم ، بأي مقياس ، فيما ينفع الناس ويدفع قدما الحضارة البشرية ·

ام تكون هذه كلها ، وغيرهـــا كثيـــر ، عوامـــل مجتمعـــة ومتضافـــرة ، تشد مجتمعاتنا العربية الى الوراء ، فكأنها فقدت ، دون امل ، القدرة على الامساك بزمام امرها والسيطرة على امكاناتها الهائلة وزجها بكاملها في معركة تقدمهـــا وتحررهـــــا ؟

من يملك القدرة على اختراق هذا الليل الذي يلف العالم العربي ، ويخنق انفاسه ، ويبدد طاقاته ؟